الفصل التاسع

تكرار الأنماط الحضارية

تتبَّعنا كيف بَزَغَ نجم الحضارة الإسلامية ثم أفَل، كما تتبعنا أيضًا بدايات الحضارة الأوروبية المسيحية والتي كان من المقدر لها أن تزدهر حتى تُبهر وتسُود بقية العالم.

وليس ثمة صعوبة في تحديد العوامل التي أدّلت بدَلْوها في نشأة هذه الحضارات، حيث يشير التاريخ بوضوح إلى أن ظروفًا بعينها قد أفْضت إلى تنظيم وتوسع هذه الحضارات، ويأتي في مقدمة هذه العوامل جميعها وجوب توفير المتطلبات الرئيسية للحياة اليومية بسهولة ويسر، حتى يُوجد متسع من الوقت والذي من شأنه أن يوفر السبيل لنُبغاء القوم حتى يحققوا الازدهار، كما يجب أيضًا أن يتوفر المال الكافي والذي يجعل رعاية الفنون والعلوم أمرًا ممكنًا.

وكما رأينا آنفًا، فقد كانت هذه العوامل موجودة عندما نهضت الحضارة الإسلامية

obeikan.com

في كل من بغداد وأسبانيا، كما وُجدت أيضًا خلال «عهد بركليز» حيث حققت التجارة الغِنى واليسار وحيث كان العمل يتحمل نفقات الراحة لنحو 100،000 من العبيد بحدٍّ يصل إلى المعدل الذي يتقاضاه المواطن الأثيني، وإلى جانب هذا، فقد كان من أثر الزراعة الناجحة للذرة الصفراء تحت رعاية الدولة أن أُتيح للهنود الحمر (شعوب الإينكا) ما يلزم من الفراغ والطاقة لإقامة حضارةٍ تاريخية، أما على صعيد أوروبا، فقد تمكنت من القيام بنهضتها والانطلاق نحو الحداثة جراء الغِنَى الذي شهدته القارة نتيجة ازدهار الصناعة والتجارة بالإضافة إلى تمكُّنها من صكّ العملة من معادن نفيسة.

ومن البديهيّ أن المال والفراغ لا يكفيان لإقامة حضارة، فلقد كانت مدينة قرطاج غنية بيْد أنها إسهاماتها في الحضارة العالمية كانت هزيلة؛ ولذا فإننا في حاجة إلى أشياء أكثر من المال والفراغ من نحو الحماسة العرقية والإدراك الذاتي والطموح لتحقيق التقدم جنبًا إلى جنب مع القوة الدافعة الناجمة جراء القوة الاقتصادية والسياسية.

ويبقى عامل آخر قد يكون أكثرها جميعًا أهمية، وهو أنه لكي تُشَيد الحضارة المزدهرة فإنه يجب أن يكون لدي الجنس (الذي يرغب في إقامة هذه الحضارة) شيئًا ما ليعبر عنه، تمامًا كما هو الحال في الإنجازات التي تتحقق على مستوى الفرد؛ حيث يجب أن يكون لدى المرء قدر من النبوغ الفطرى الذى يعتبر بمثابة

شرارة للإبداع.

ويجب على أي حضارة راقية بمجرد أن تشرع في السير في طريق رُقيها وتقدُّمها أن تقوم بالدور الذي يُؤديه المغناطيس وذلك بجذب الأفراد ذوي الموهبة إلى مركز بؤرتها، وكما أن أثينا قد ضمت في حقبة ما من الزمن بين أحضانها كل النبغاء المبدعين في اليونان، فقد سارت الإسكندرية على نفس خُطى أثينا إبان أفول نجم الأخيرة، ومع بدايات القرن الثامن، أصبحت الحضارة الإسلامية المركز الرئيسى للتقدم العالمي فجذبت إلى أحضانها اليهود والفرس والمسيحيين وحتى الأتراك، وعندما أخذ نجم الحضارة المسيحية في الصعود، مارست كل من روما وفلورنسا وباريس وبروغ نفس قوة الجذب المشار إليها آنفًا، وتعد أمريكا «أرض الفرص» والتي توطدت دعائم تقدمها جراء الإسهامات المشتركة من قبل أناسها الطموحين والذين ينتمون إلى أصول قومية متعددة أعظم مثال يضرب في هذا الصدد.

obeikan.com

2

يواجه المرء صعوبةً أكبر في تحديد العوامل التي أدت إلى انحطاط الحضارات من تتتبع الأسباب التي أفضت إلى نهوضها فى هذا المجال، ويُعزى المؤرخون انحطاط الحضارات لأسباب عديدة حيث حاول بعضهم مثل «توينبي» إيجاد أُنمُوذج يفسر سائر حالات التردى الحضارية، ولكن تبقى الحقيقة أنه لم تبق ثمة حضارة خلاَّقة وعلى قدرٍ من العظمة على سمو شأنها حيث انحدرت جميعها من قمم الجبال لتصل إلى مستوى السهول، وإننى أري أن الأمر سيظل على هذه الوتيرة دومًا.

غير أن العصر الحديث الذي نحياه اليوم يقدم لنا إمكانية حضارية جديدة تسير بخطى ثابتة مطَّردة تجاه استمرارية التحسينات التكنولوجية، كما أن التقنيات الآلية لا يوجد من الضرورة ما يؤدي لانحطاطها بمجرد التوصل إليها حيث يبدو الأمر في الحقيقة وأنها قد قُدِّر لها أن تشكل النمط الذي يأخذ منحنى الصعود الدائم.

غير أن الآلات والتقنيات وحدها لا تؤدي بصورة حقيقية إلى نشأة حضارة حيوية إذ

obeikan.com

لا بد من توافر القيم الروحية والأسلوب الجماليّ والحياة الرّغدة والتي تُعد جميعها عناصر واهبة للحياة، والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: كيف ومتى سيفهم العالم الحديث ضرورة إيجاد حضارة سامية وأخلاقية بقدر عظمة التكنولوجيا التي توصل إليها؟ وبمعنى آخر، كيف ستعيد البشرية اكتشاف روحها من جديد؟

obeikan.com